

**الأناية فى
مأساتى الكستيس وميديا
ليوريديس**

بحث مقدم من

د. ليلى عبد المنعم

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

الأنانية في مفاساتي ألكستيس وميديا ليوربيديس

بحث مقدم من د. ليلي عبد المنعم

في إلياذة "هوميروس" تتهنر أمانا شخصية أخيليوس البطولية في بعض اللحظات ، حينما يرفض الاستمرار في الحرب إثر غضبه من "أجاممنون"^(١) ، وحينما يعلن — في رأس — أن سعائته الشخصية فوق سعادة "أجاممنون" ، وأن الثروة تأتي في المقام الأول قبل النصر^(٢) ، كما أن الحياة والأسرة تأتيان قبل المجد والموت المبكر^(٣) . لكن "أخيليوس" ، سرعان ما يتجاوز مشاعر النفعية والأنانية ، بعد مصرع "باتروكلوس" ، ويعود — مرة أخرى — إلى مواصلة القتال ، لأن شعوره بالواجب والمصلحة العامة كان كامناً في وجدانه طوال الوقت .

وفي مأساة "فيلوكتيئس" نفاجأ بأن "نيوبتوليموس" ، بما فطر عليه من أخلاق بطولية نبيلة^(٤) ، نغريه المنفعة الشخصية το κερδος — المتمثلة في حصوله على أسلحة "فيلوكتيئس" — على القيام بخداعه^(٥) . لكن المأساة لا تنتهي قبل أن يتخلى "نيوبتوليموس" عن أنانيته ومنفعته الشخصية ، ويعود إلى التمسك بالحق والعدل εὖν τῷ δίκαιῳ^(٦) ، ومن ثم يعيد إلى فيلوكتيئس أسلحته^(٧) .

فإننا كلن "أخيليوس" عند هوميروس ، و"نيوبتوليموس" عند سوفوكليس تتأباهما — لفترة وجيزة — رغبة في تحقيق المنفعة الشخصية فيتصرفان بأنانية سرعان ما يتخيلان عنها ، فإننا نجد عند يوربيديس — على النقيض منهما — شخصيتين أنانيتين φιλαυτοὶ تسعيان إلى تحقيق المنفعة الشخصية ονησις أو κερδος أو το συμφέρον بصلاية وعناد وكأنهما يستجيبان إلى قيمة أخلاقية واجبة الأداء . بل إن مايزيد معالم هاتين الشخصيتين تركيزاً وتقرباً أنهما زوجان ، وأن أنانيتهما تتمحور حول علاقتهما بالزوجة والأسرة ، في حين أن علاقة الرجل بزوجه وأسرته أسسها التراحم والعطاء بعيداً عن النفعية أو الأنانية . وأحد هاتين الشخصيتين هو "أنيستوس" في المأساة المسماة باسم زوجته

"ألكستيس"، والآخر هو "ياسون" في المأساة الممنوعة باسم زوجته "ميديا".

"كانت للعلاقة الزوجية - في واقع الأمر - أكثر نقاط الضعف في الأسرة اليونانية"^(١). ويمكن القول إن هاتين المأساتين تعكسان - بجلاء - اهتمام "يوريبيديس" بقضية علاقة الرجل بالمرأة، كما أنهما تتنمان - في الوقت نفسه - دليل براعته من تيمة عدائه للمرأة، والذي توحى به قسوة بعض كلمات مأسيه^(٢)، ذلك لأنه ينتقد - في مأساتي ألكستيس و ميديا - أبناء جنسه من الرجال.

فلذا أخذنا في الاعتبار أن المأساة اليونانية تعكس - إلى حد ما - بعض الأحداث والأحوال المعاصرة^(٣)، فإن ما يعطينا - هنا - بعيداً عن قضية عداء "يوريبيديس" أو مناصرته للمرأة أن "يوريبيديس" - بوصفه كاتباً واقعياً - ينبه من خلال هاتين المأساتين إلى خطورة النفعية والأنانية وأثرهما في انهيار الأسرة والمجتمع. ويبدو أن الأنانية والنفعية كانتا من أمراض عصر يوريبيديس الذي نجد وصفاً له في قول ثيوكيديدس "إن الناس قد أقبلوا على المتعة وانعدم لديهم الخوف من الآلهة والقانون"^(٤). فيبدو أن التشكك في قوى الآلهة كان يمثل استعداداً عند القاعدة العريضة للمجتمع الأثيني منذ أواسط القرن الخامس ق.م، لايلت أن ينفجر إذا تعرض المجتمع لشدة من الشدائد، كما حدث عندما ألم الوباء بالأثينيين في ٣٠ ق.م^(٥)، وهو ما يصفه لنا "ثيوكيديدس" بوضوح في قوله "أما عن الآلهة، فيبدو أن الأمر أصبح متساوياً سواء في ذلك أتعب الناس لهم أم لم يتعبوا، طالما أن الموت (من أثر الوباء) كان يحل بالأخير والأشهر دون تمييز"^(٦). وعلى الرغم من أن الفضيلة تقتضى - بما لا يدع مجزأ للشك - اتباع الحق والعدل δικαίον بصرف النظر عن المتعة أو المنفعة^(٧)، فإن الميل إلى المنفعة το συμφέρον - في ذلك العصر - كان قوياً^(٨).

ونبدأ بمأساة "ألكستيس" التي تواجهنا بأن أجل "ألميتوس" قد دنا، إلا أن القدر سيظل عمرد شريطة أن يتقدم أحد أقربائه إلى الموت عوضاً عنه^(٩). ومن الغريب أن "ألميتوس" لا يتردد في قبول هذا العرض، بل أنه يطلب من أبويه - بالحاح - أن يقتضيه بجائهما^(١٠).

وذلك من فرط أنانيته . حينما يرفض الأبوان هذه التضحية ، وتقبلها — فى عطاء نادر — زوجته " ألكسيس " ^(١٨) . بالرغم من حبها للحياة ^(١٩) ، فإن أنانيته تدفعه لقبول تضحية زوجته بحياتها من أجله ^(٢٠) . وبالرغم من أن المدينة بأسرها تعرف بأمر تلك التضحية ^(٢١) ، فإن " أميتوس " — وكأنه لم يفعل شيئا غريبا — يواجه الجميع دونما خجل ، ودون أن يسرى عاقبة أفعاله ، شأنه فى ذلك شأن الأبطال التراجيديين ، بينما تبنيء بذاتية المأساة بشقائه ، وذلك على لسان خادمة القصر :

ουπω τοδ οιδε δεσποτης , πριν αν παθι ^(٢٢)

لن يعرف سيدى ذلك قبل أن يعانيه

τοσουτον αλγος , ου ποτ ου λελησεται ^(٢٣)

مثل هذا العذاب العظيم لا ينسى أبدا .

وعندما يظهر " أميتوس " — للمرة الأولى — فى أثناء احتضار زوجته الشابة " ألكسيس " ، يكون قد بدأ يطفئ ثمار أنانيته المرة . إنه يدرك — بعد فوات الأوان — أن زوجته لا تستحق الموت ^(٢٤) ، ولا يكاد يصدق أن الموت واقع لامحالة ، وأن الأمر قد أفلت من بين أيديهما ، فيبزم جسد زوجته — فى هستيرية — راجيا إياها ألا تتركه وحيدا :

επαιρε σ αυτην , ω ταλαινα , μη προδω ^(٢٥)

انهضى أيتها الشقية ، لا ترحلى

وحينما تتمكن " ألكسيس " — فى أثناء احتضارها — من مخاطبة زوجها ^(٢٦) ، فإن حديثها ينصب — بصفة أساسية — حول مصير أطفالهما ، أما " أميتوس " فتكتفى بأن تذكره بأنها ضحت من أجله ، وكأنها بذلك تذكره بأنانيته ، بالإضافة إلى أنانيته والنيه . وتشعر " ألكسيس " — من ذلك المنطلق — بأن من حقها أن تلزم زوجها ألا يتزوج بعد موتها

حتى لا يكون انشقاق مصير أطفالنا . إننا — في الواقع — نطلب ثمناً لما فعلته من أجله .
وإن كانت تتظاهر بعكس ذلك :

αιτησομαι γαρ σ' αξιαν μεν ουποτε^(٣٧)

لذلك فلن أسألك أبداً هذا المعروف

وإذا كانت " ألكستيس " توجه — في أثناء احتضارها — جل اهتمامها إلى أطفالها ،
فذلك لأنها لم تعد تقيم بأدميتوس الذي تسبب أنانيته في موتها ، فنحن نلاحظ أن " ألكستيس " ^(٣٨)
تعامل زوجها في فتور يتجلى في قولها " إن الزمن سيخفف عنك " ^(٣٩) .
χρονος μαλαξει σε ، وذلك حينما ترد على شكواه مما سيعانيه في الحياة بدونها .
كما نلاحظ أيضاً أن " ألكستيس " تتعامل مع " أدميتوس " في سخرية واستهزاء ، فحينما يعبر
" أدميتوس " عن رغبته في الموت ^(٤٠) — بعد أن أصبحت الحياة قاسية بدون " ألكستيس " —
نجد " ألكستيس " ترد عليه — في استهزاء — قائلة :

αρκουμεν ημεις οι προθησκοντες σεθεν^(٤١)

يكفينا نحن أن يكتب علينا الموت قبلك

أما " فيريس " والد " أدميتوس " — الذي يظير للمرة الأولى في أثناء إعداد جنازة
" ألكستيس " — فلا يخلو أيضاً من أنانية ، إنه يواسي ابنه بفتور ^(٤٢) ، ثم لا يخفى شعوره
بالارتياح لتضحية " ألكستيس " بحياتها من أجل ابنه لأنها أنقذته — شخصياً — من معاناة
مشاعر الشيخوخة وآلامها بدون ولده ^(٤٣) ، ثم يكشف عن أنانيته كشفاً صريحاً عندما يعبر
عن رأيه في الزواج فيقول :

.....φημι τοιουτους γαμους
λυσειν βροτοισιν , η γαμειν ουκ αξιον^(٤٤)

أقول أن مثل هذه الزيجات تريح الناس
وإلا انعمت قيمة الزواج

وربما أمكننا القول إن " يوربيديس " قد رسم شخصية والد " أدميثوس " على هذا النحو. بغرض تعميق أو تأصيل أنانية " أدميثوس " لأن الابن قد تأثر - فيما يبدو - بشخصية أبيه . ومن ناحية أخرى فإن " يوربيديس " عندما يضع الشخصيتين الأنانييتين - الابن والأب - في مواجهة بعضهما ، فإنه يضعنا أمام موقف ساخن تتبادل خلاله الشخصيتان الكلمات الحادة العنيفة ، فالابن - الذى اتخذ من قبل موقفاً عدائياً من أبيه لرفضه فدائه بروحه (٣٤) - يتجرد الآن من مشاعر النبوة ، ويهدد أباه بعدم المشاركة فى دفته والعمل على تويته سمعته بين الناس (٣٥) . أما الأب الذى يعرف ابنه جيداً ، فإنه - بعد أن يوجه إليه سبلاً من الشتائم (٣٦) - لا يجد بداً من مواجهة ابنه بعينه - بأنانيته - مواجهة صريحة ، ويقدم على ذلك دليلاً بعد آخر :

οφειλω δ ουχ υπερ θνησκειν σεθεν
 ου γαρ πατρων τονδ εδεξαμην νομον,
 παιδων προθνησκειν πατερας , ουδ Ελληνικον (٣٨)
 ليس ثمة ما يلزمنى على الموت من أجلك
 لأننى لم أرث هذا التقليد عن آبائى
 وهو أن الآباء يموتون بدلاً من أبنائهم ، إن هذا ليس تقليداً يونانياً :

χαιρεις ορων φως . πατερα δ ου χαιρειν δοκεις (٣٩)
 أتسعد أنت برؤية الضوء ، وتظن أن أباك لا يسعد به ؟

νομιζε δ , ει συ την σαυτου φιλεις
 ψυχην , φιλειν απαντας (٤٠)
 إذا كنت أنت تحب نفسك
 فتذكر أن الجميع (أيضاً) يحبون أنفسهم .
 ψυχη μια ζην , ου δυοιν οφειλομεν (٤١)
 مكتوب علينا أن نعيش مرة واحدة لا مرتين

على أن الفارق بين أثنائية فيريس وابنه أدميتوس هو أن "أدميتوس" - شأن الأبطال التراجيدين - لا يعترف بخطئه ، وإنما يشادى فيه ويشمر بأنه ضحية الآخرين ، إلى أن يدرك في نهاية الأمر أنه ضحية نفسه فحسب . فمما فلاحظه في نيابة موقف المواجهة بين "فيريس" وابنه "أدميتوس" أن "أدميتوس" لم يعترف بأثنائيته أو يقر بخطئه ، بالرغم من أن أباه قد قدم - كما بينا - أكثر من دليل على ذلك ، بل مازال "أدميتوس" يضع مشاعره ورغباته الشخصية فوق أى اعتبار آخر ، لذلك يقرر هجر أبويه لأن كليهما لم يضحيا بحياتهم من أجله ^(٢٦) .

وإذا كانت مواجهة والد "أدميتوس" الحادة لابنه لم تنجح في أن تضعه في مواجهة شجاعة أمام حقيقة شخصيته ، فذلك يرجع - في تصورنا - إلى أمرين : أولهما : إيمانه الزائد بنفسه الذى يضع - كما أسلفنا الذكر - غشاوة كثيفة أمام عينيه ، أما الأمر الثانى : فيتمثل فى أن جنازة "ألكسيس" تقع أحداثها عقب خروج والد "أدميتوس" مبشراً ، وبذلك يوجه "أدميتوس" كل مشاعره إلى ذلك الحدث دون أن يلتفت إلى كلمات والده أو يتبصرها ، فالوقت لم يكن مناسباً لذلك .

على أن اكتشاف "أدميتوس" خطأه لم يتأخر طويلاً ، إنه يبدأ عقب مواراة جثمان زوجته "ألكسيس" التراب ، حيث نجده يعترف - فى مرارة - بأنه أخطأ $\alpha\mu\alpha\rho\tau\epsilon\iota\nu$ فى حق زوجته المخلصة ^(٢٧) . والأمر الجدير بالاعتبار ، أن "يوربيديس" قد ركز مأساة "أدميتوس" فى يوم واحد هو اليوم الذى كان متقدراً أن يلقى فيه حتفه ، فإذا بزواجه تفتديه بروحيا ، وهو نفس اليوم الذى يكتشف فيه خطأه بعد دفن زوجته . والواقع أن "يوربيديس" يلقى على الموقف سخرية تراجيدية ، ففي اللحظة نفسها التى يكتشف فيه "أدميتوس" نفسه ، يكتشف أنه خسر الحياة ، أو لا يستحق الحياة ^(٢٨) $\sigma\upsilon\ \chi\rho\eta\nu\ \zeta\eta\nu$ ، ذلك لأنه قد خسر ألكسيس ، وفقد بيته ^(٢٩) ، وسعدته واحترام الناس ^(٣٠) . إن الحقيقة التى توصّل إليها "أدميتوس" هى أن الموت لا فرار منه ، فإن قدر الإنسان أن ينجو منه - متلماً فعل - فإن الحياة نفسها تصبح موتاً ، كما يصبح البيت قبراً . لقد كان "أدميتوس" يبحث عن الحياة ، فإننا به نجد الموت ! عنئذٍ فقط يعترف "أدميتوس" بأنه قد تعلم بالفعل $\alpha\rho\tau\iota\ \mu\alpha\nu\theta\alpha\nu\omega$ ^(٣١) .

وفي الوقت الذي يكتشف فيه " أدميتوس " نفسه ، ويدرك حقيقة الحياة من حوله ، ويصبح إنساناً جيداً . في ذلك الوقت يتمكن " هيراكليس " من انتشال " ألكستيس " من الموت ، وإعادتها إلى الحياة ، ثم لا يلبث أن يأتي بها إلى " أدميتوس متخفية ، ويقدمها إليه بوصفها إحدى الخادمات ^(٤٨) . وهذا المشهد — الذي يجمع بين الأبطال الثلاثة " هيراكليس " و " أدميتوس " والمرأة — يوجز في " هيراكليس " حواراً ذكياً مع " أدميتوس " ، تلزم المرأة أثناءه الصمت — يكشف عن حزن " أدميتوس " الشديد على فقدان زوجته ولهفته عليها ^(٤٩) . وكرامته للحياة $\mu\eta\kappa\epsilon\theta\ \eta\delta\epsilon\sigma\theta\alpha\iota\ \beta\iota\omega$ ^(٥٠) .

ويهدف حوار " هيراكليس " مع " أدميتوس " — أمام " ألكستيس " المتخفية — إلى التأكيد — أمامها — على أن " أدميتوس " قد تخلص — بالفعل بعد معاناته — من أثلثيته ومن نظرته الضيقة للحياة والموت . وينتهي هذا المشهد بتعرف " أدميتوس " على زوجته ^(٥١) . وعندها تعود الحياة الحقيقية إلى " أدميتوس " بعد أن اكتشف أن حياته — التي دفعته أن تكون حياة " ألكستيس " — ثمنها — كانت — في واقع الأمر — مواتاً . وهو حين يصور مأساة " أدميتوس " على هذا النحو ، فإنه يحذر من عاقبة الأنانية .

وننتقل الآن إلى مأساة " ميديا " ، لنقدم نموذجاً آخر للشخصية الأنانية ، وما تجنيه من الآثم من جراء ذلك . تكشف أولى كلمات مأساة ميديا عن أنانية " ياسون " ، حين تقول المريية أن زوجها قد فعلت كل ما يمكن أن يحقق المنفعة لياسون $\alpha\upsilon\tau\eta\ \tau\epsilon\ \pi\alpha\nu\tau\alpha\ \xi\epsilon\mu\phi\epsilon\rho\upsilon\sigma\iota\ \iota\alpha\sigma\omicron\upsilon\nu$ ^(٥٢) ، إلا أنه يهجرها الآن ليتزوج ابنة " كريون " ملك كورنثا ^(٥٣) . يتضح لنا أن " ياسون " شخصية قاسية لا تراعى مشاعر الآخرين ^(٥٤) ، ذلك لأنه يتصف بأنانية طاغية ^(٥٥) ، إنه شخصية تعودت أن تلحق دون أن تعطى . لقد كانت " ميديا " ذات نفع وفائدة $\xi\upsilon\mu\phi\epsilon\rho\upsilon\sigma\alpha$ ، والآن باتت ابنة " كريون " أكثر نفعا . وأشد ما يدعو للأسف أن أنانية " ياسون " تكاد تكون ظاهرة عامة كما يقول مربي أطفال " ميديا " :

$\omega\varsigma\ \pi\alpha\varsigma\ \tau\iota\varsigma\ \alpha\upsilon\tau\omicron\nu\tau\omicron\nu\ \tau\omicron\upsilon\ \pi\epsilon\lambda\alpha\varsigma\ \mu\alpha\lambda\lambda\omicron\nu\ \phi\iota\lambda\epsilon\iota$ ^(٥٦)

إن كل امرئ يحب نفسه أكثر مما يحب غيره .

هكذا تتلقى "ميديا" صدمة عنيفة تكاد تقضى عليها^(٢٠) ، ويشلها إحساس بالمعاناة δυσκλεια^(٢١) . ويزداد موتها سوءاً حينما تُتاجأ بأن الملك "كريون" يصدر أمراً بنفيها من "كورنثا" ، ويميلها يوماً واحداً فقط لتنفيذ هذا القرار^(٢٢) . هكذا يعرض "ياسون" زوجته لمحنة قاسية تواجهها بمفردها في بلد غريب دون أم أو شقيق أو قريب^(٢٣) . وحينما يظير "ياسون" — للمرة الأولى —^(٢٤) ، تطل علينا شخصيته الأنانية بكل قسوتها ، فيؤ لا يتر محنة "ميديا" ، ويخاطبها — في أول لقاء يجمع بينهما في المأساة — بنغمة حادة ، ولايجل من قرار "كريون" في إبعادها عن "كورنثا"^(٢٥) . ويتعامل "ياسون" مع زوجته في برود وصلف ، فعندما تذكره بما فعلته من أجله^(٢٦) ، لا يعترف بهذا الفضل ، وإنما يجيبها بأن حبها له هو الذي اضطرها إلى ذلك^(٢٧) ، ويدعى أنه قد تفضل عليها بأن نقلها من بلادها البربرية إلى بلاد اليونان^(٢٨) . والجدير بالذكر — هنا — أن "ياسون" لم يصف من قبل بلاد "ميديا" بالبربرية ، ذلك لأنه كان يسعى — وقتئذٍ — إلى متعته الشخصية ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه شخصية أنانية .

ومن اللافت للنظر أن "ياسون" لا يخفى في ذلك المشيد أن زواجه من ابنة "كريون" يستهدف المنفعة الشخصية المتمثلة في رغبته في حياة رغدة ومكانة اجتماعية مرموقة له ولأسرته^(٢٩) ، في حين يخفى ذلك الدافع — بطبيعة الحال — عن "كريون" وابنته، مثلما فعل مع "ميديا" من قبل . وفي تصورنا أن كشف "ياسون" — هنا — عن نسله الدافع يؤدي إلى نتيجتين ، أولاًهما أن اعترافه بأنانيته ، ونظرته المادية للحياة ، يعزز رأى الآخرين فيه ، فضلاً عن أنه يدل على أنه — على خلاف الآخرين — لا يجد في نفسه عيباً . أما النتيجة الثانية فهي الإحياء بإخفاقه في فهم جوهر شخصية "ميديا" ، فيؤ يتصور أنها سترحب بهذا الزواج ، مادام الدافع إليه ينحصر في تحقيق المنفعة الشخصية ، في حين أن "ميديا" — على خلاف "ياسون" — لها قيمها الخاصة ، فالماديات — عندها — لا تعوض الإحساس بالآثَم :

η πολλὰ πολλοῖς εἰμι διαφορὸς βροτῶν^(٣٠)

إننى أختلف كثيراً عن كثير من البشر

μη μοι γενοιτο λυπρος ευδαιμων βιος ^(٦٨)

ليتنى لا أنعم بهذه السعادة ، إنها حية مؤلمة

وعلى الرغم من أن " ميديا " شخصية عاطفية ، تضع عاطفتها فوق كل اعتبار ، فإن سيطرة مشاعر الأنانية والنفعية على شخصية " ياسون " توقعه فى خطأ سوء فهم التقدير *αμαρτια δοξης* ، الذى يتمثل فى أنه بات يرى الآخرين من منظور قيمه الشخصية ، حتى أنه يتوهم أن " ميديا " ممكن أن تكون نفعية مثله ، وأنه يمكن إرضاؤها بالثروة ^(٦٩) . ويطلبها — فى الوقت نفسه — بالتروى والرضا عن الزواج مقابل أفضل المكاسب :

ληξασα δ οργης κερδανεις αμεινονα ^(٧٠)

كفى عن غضبك وأنت تفوزين بأفضل الأشياء

إلا أن " ميديا " تشعر بأنه جرح كبرياءها جرحاً عميقاً ^(٧١) ، فترفض الصفقة — فى كبرياء وضجر — فهي لن تعطيه شيئاً ، ولن تأخذ منه شيئاً :

ουτ αν τι δεξαίμεσθα , μηθ ημιν διδουν ^(٧٢)

لن نقبل شيئاً وأنت لاتعطينا شيئاً .

وبعد أن ينتهى اللقاء بين الزوجين بفشل كلا الطرفين فى إقناع الآخر بمنطقه الخاص ، يأخذ كلاهما طريقين مختلفين ، فميديا تبدأ الإعداد للانتقام من أنانية زوجها ، أما " ياسون " فيسعى للإعداد للزواج الذى سيجنى من ورائه مكاسب جمة . فى ذلك الوقت يصل " أيجيوس " ملك " أثينا " ، بعد أن قام بزيارة إلى معبد " أبوللو " ليسأله أن يهبه ذرية ^(٧٣) .

وينتو لنا أن ظهور " أيجيوس " فى ذلك الوقت — على وجه الخصوص — يستهدف عقد مقارنة بين حالتي " ياسون " و " أيجيوس " ، وهى مقارنة ليست فى صالح " ياسون " ، الذى يتخلى — بكل أنانية — عن أطفاله من أجل تحقيق منفعة شخصية .

وعقود ذلك ، فإن ظهور " أيجيوس " ملك " أثينا " بعد تآزم العلاقة بين " ميديا "

ويأسون ، وعقدوا العزم على الانتقام منه ، يعيد في إيجاد أمل لدى " ميديا " في ملاذ يأويها ويحميها بعد فرارها من " كورنثا " . والملاحظ أن " ميديا " تنتهز حاجة " أيجيوس " الملحة إلى الإنجاب فتلوح له بقدرتها السحرية على تحقيق رغبته حتى تحصل منه في المقابل على الحماية ، فإذا بأيجيوس يقبل العرض في الحال دونما تردد ^(٧٤) .

ويعبر هذا الموقف عن ذكاء " ميديا " ^(٧٥) ، كما يوضح أنه تتبنى — مؤقتاً — قيم " ياسون " المادية بغرض الوصول إلى هدفها ، وهو الانتقام من أنانية " ياسون " . ونلاحظ — هنا — أن " ميديا " لا تنهى الصفة مع " أيجيوس " قبل أن يقسم على توفير الحماية لها :

εσται ταδ αλλα πιστις ει γενοιτο μοι
τουτων , εχοιμ αν παντα προς σεθεν καλωσ ^(٧٦)

فليكن ! إنما ياليتني أحصل على قسم
بتلك الأمور ، عندئذ أحصل منك على كل ما فيه خير .

وتبدأ أول مراحل خطة انتقام " ميديا " من " ياسون " بأن تتظاهر بأنها اقتنعت بقيمه المادية ، فهي تطلبه مرة أخرى لتسأله المَعذرة عما بدر منها ^(٧٧) ، ثم تأخذ في تأنيب نفسها بحدة — أمامه — حتى توهمه بأنها اقتنعت بموقفه ، وباتت لا تعارض زواجه من ابنة " كريون " :

σχετλια , τι μαινομαι
και δυσμναινω τοισι βουλευουσιν ευ ,
εχθρα δε γαιας κοιρανους καθισταμαι
ποσει θ , ος ημιν δρα τα συμφορωτατα , ^(٧٨)

يالويسى ! هل لحق بي الجنون

وقد تيورث على من يسدون لى عظيم النصح،

وجعلت من نفسى عدواً لمن يحكمون الأرض

ولزوجى الذى يعمل على ما فيه نفعى .

ومما لا شك فيه أن تظاهر " ميديا " بالانتعاض يدفع " ياسون " إلى الزواج من ابنة " كريون " وموافقتها عليه ، سيئ لها المصير في تنفيذ خطة انتقامها . ولم يساور " ميديا " الشك

لحظة واحدة في أن زوجها قد يكشف ادعاءها ونفاقها ، ذلك لأنها تعرف شخصية زوجها حق المعرفة ^(٧٩) . ومن الغريب أن "ياسون" يظن إلى "ميديا" ، ويصدق أنها تغيرت بالفعل ويثنى عليها αἰνῶ , γυναι ^(٨٠) . ولعل هذا يعني أن "ياسون" لا يفهم "ميديا" جيداً — على العكس منها — أو أن إيمانه الزائد بقيمه يصور له غلبة هذه القيم على أية قيم أخرى ، أو يوحي إليه بأن "ميديا" يمكن أن تتأثر به أو تصبح صورة منه .

وتتج "ميديا" في كسب ثقة "ياسون" ، حينما تفاجئه بإرسال هدية إلى زوجته الجديدة تتكون من ثوب مطرز وتاج ذهبي ، بعد أن تكون قد ذهبت — دون علم "ياسون" — بمادة مميّنة . وبينما لا يشك "ياسون" — بسبب إيمانه الشديد بذاته — في أمر الهدية ، وإنما يكتفى بالقول بأنه لا يجد ضرورة لها ^(٨١) ، فإن "ميديا" ترد عليه بعبارة لا يفهم منها "ياسون" سوى معناها الظاهري ، في حين أنها تحمل في طياتها سخرية مرة منه ، وإشارة دافعة إلى عيبه الجوهري ، إيمانه بالقيم المادية :

χρυσος δε κρεισσων μυριων λογων βροτοις ^(٨٢)

أما الذهب ، فهو أقوى — عند الناس — من الكلمات الفياضة

وسرعان ما تأتي هدية "ميديا" المميّنة ثمارها ، إذ يعلن الرسول مصرغ ابنة "كريون" وأبيها ^(٨٣) ، وهذا يبقى أمام "ميديا" أن تقتل أبناءها في الحال ^(٨٤) ، حتى يكتمل انتقامها من "ياسون" . وعلى الرغم من إحساس "ميديا" ببشاعة قتل أطفالها ، وترددتها في ذلك كثيراً ^(٨٥) ، فإنها لا تقارم رغبةا في أن يكون انتقامها من "ياسون" عفيفاً ، حتى لو كان ثمن ذلك هو قتل أطفالها ^(٨٦) .

ولقد كان القضاء على أطفال "ياسون" بمثابة القضاء عليه αὐτὸς ^(٨٧) ، بل أن "ميديا" تريد — فوق ذلك — أن يكون مصدر ألم دائم لياسون ^(٨٨) ، لذا فهي تحاول أن تشعره بعقدة الذنب ، حينما تقول أن السبب في قتلهم هو إفراطه في حبه لذاته ووزواجه الجديد ἀλλ' ὑβρις οἱ τε σοὶ νεοδμητὲς γαμοὶ ^(٨٩) ، مما يصيبه بوخز الضمير δηξεται ^(٩٠) ، وتؤكد له أن الألم الحقيقي — من فقدان الأبناء — ممنتابه حينما يتقدم به العمر :

οὐπω θῆρηνεις . μένε και γῆρας^(١١)

لا نيك الآن وانتظر الشيخوخة

وهكذا فإن خطأ "ياسون" المأساوي يكمن في إيمانه الزائد بقيمه الشخصية من أنانية ونفعية ، دون الاهتمام بمشاعر زوجته "ميديا" ، أو برأى الآخرين فيه ، بل أنه يتوهم أن "ميديا" قد تبنت قيمه ، في حين يتضح له - فيما بعد - أنها صورت له ذلك حتى يطمئن إليها ، فيسبل عليها الانتقام منه . وحينما تنتقم "ميديا" من "ياسون" ، فإنها تنتقم من تلك القيم التي عرضتها لمحتثي القاسية .

وقد حرصنا في معالجة قضية الأنانية ، من خلال تحليل مواقع ومجبرات أفعال "ياسون" و "أدميتوس" في إطار علاقتيما بأسرتيما ، أن نركز في إشاراتنا النصية على القيم الشخصية والمادية الصرفة التي تحرك هاتين الشخصيتين ، على نحو يميزهما عن غيرهم من شخصيات أخرى - لدى كتاب آخرين - ممن يتوافر فيها إحدى ملامح الأنانية -ومن نماذج هذه الشخصيات "أخيليوس" الذي تتمثل أنانيته في عزوفه عن الحرب . إلا أننا ننتقهم أنما مجرد انفعال غاضب يقابل به الاعتداء على قيمة أخلاقية هامة ألا وهي كرامته وكبريائه البطولي . وعلى أية حال فإن شعور "أخيليوس" بالواجب والمصلحة العامة - الذي كان كامناً ضوأل الوقت - يتغلب في نهاية الأمر على ما أبداه من مشاعر نفعية أو أنانية . ولدينا - في هذا المجال - مثال آخر هو "نيوبتوليموس" الذي ترجع أنانيته إلى خطط متعبد من جانب "أوديسيوس" بين مصلحة الوطن ومصلحة "نيوبتوليموس" الشخصية ، وحينما أدرك الأخير المأزق الذي أوقعه فيه دهاء "أوديسيوس" ، فإن خلقه البطولي وإيمانه بالفضيلة αρετη أمليا عليه التخلي عن منفعة الشخصية في الحصول على أسلحة "فياوكتيتيس" .

والواقع أن قيمة الإنسان المتميز كانت إحدى القيم الحضارية في المجتمع اليوناني ، إذ كان اليونانيون يؤمنون فعلاً بوجود أمثلة لهذا الإنسان المتميز منذ عصر "هوميروس" ، وكانت هذه الفكرة واحدة من الأفكار التي وصلت في بلاد اليونان بصورة عامة ، وفي أثينا بصورة خاصة ، إلى قمتها في القرن الخامس ق. م^(١٢) ، وربما جاز لنا القول أن "أخيليوس"

و "نيوتوليموس" ، باختياراتهما الأخلاقية وجلدهما البطولي ، يمثلان نموذجين بارزين للإنسان المتميز ، أو بالأحرى عصر الإنسان المتميز .

أما عصر "يوربيديس" فهو عصر الضياع أو انهيار القيم بسبب وبلاء الحروب البلوبونيسية . وفي كل مسرحيات "يوربيديس" يميل الشاعر إلى تصوير شخصياته في صورة لا تختلف كثيراً عن الفرد العادي ، بحيث تصبح هذه الشخصيات منسجمة تماماً مع عصر الشاعر بكل عيوبه وأمراضه الاجتماعية . ونجد صورة ساخرة لعبوب ومشاكل هذا العصر في الكوميديا القديمة التي يمثلها "أرسطوفانيس" ، وتقلها لنا كوميدياته (الأكلونيون ، والسلام ، ويرلمان النساء ، وغيرها) ولاشك أن آثار عصر الحروب البلوبونيسية لم تنته بانتهاء تلك الحروب ، إذ يمكن القول إن إقدام "أفلاطون" على تأليف "محاورة الجيمورية" ، — التي يقدم فيها مشروعاً لدولة جديدة ، ويخصص الكتاب السابع فيها كله للدعوة إلى نظام تربوي وتعليمي ، يعالج فيه أخطاء الأسرة وعلاقاتها من خلال الدولة ، لا من خلال الأسرة^(١٣) — ليس إلا استجابة للآثار التي خلفتها الحروب البلوبونيسية على المجتمع الأثيني .

وهكذا فإن "يوربيديس" ، بوصفه معلماً و كاتباً اجتماعياً ، يقدم نموذجين من الحياة هما "أدميتوس" و "ياسون" ، يصوران مرضاً اجتماعياً من أمراض ذلك العصر ، وهو الأنانية ، التي تحمل كلاهما عاقبتها بقدر متباين . ففي حين أن "أدميتوس" يتخلص من شقائه ومعلقاته ، بعد أن يتخلص من أنانيته ، فإن "ياسون" تطبق عليه الكارثة قبل أن يستوعب الدرس . هذا المرض الاجتماعي يؤدي — كما بينا قدر جهننا — إلى انهيار الأواصر الأسرية وتقويض أركان البيت ، ومن ثم فإنه يهدد المجتمع اليوناني . ولاشك أن الشقاء الذي تعرضت له الشخصيتان "أدميتوس" و "ياسون" ، هو صيحة تحذير يطلقها "يوربيديس" على سامع جميعور المسرح اليوناني وبصره .

الحواشي

- 1) IL. I, LL. 152-156
- 2) Ibid, VI, LL. 398-404.
- 3) Ibid, VI, LL. 414-415.
- 4) Phil, LL88-91.
- 5) Ibid, LL120-122.
- 6) Ibid, 1252.
- 7) Ibid, LL. 1291-1304
- 8) Cadwell, Richard Smith, The Psychoanalytic Criticism Of Aeschylean Tragedy , Theory And Practice : Ph .D.Diss. Univ. Of Minnesota ,Microfilmed, 1973, PP. 62-63.
- 9) انظر على سبيل المثال هيبوليتوس ، الأبيات ٦١٦-٦٣٩ ، وقارن من ناحية أخرى ، كلماته الرقيقة المتعاطفة مع هموم المرأة في مأساة " ميديا " الأبيات ٢٣٠-٢٥١.
- 10) Campbell, Lewis ,Tragic Drama In Aeschylus, Sophocles & Shakespear An Essay , London, 1904, P. 34.
- 11) Thuc. II. Liii.4
- 12) يحيى - لطفى عبد الوهاب ، الأسطورة والحضارة والمسرح فى مأساة أوديب ملكاً، عالم الفكر ، المجلد السادس عشر، العدد الثالث ، ١٩٨٥، ص١٠٣.
- 13) Thuc. II, 52, 3-4.
- 14) Creed , J.L., Moral Values In Thucydides , Time , Ca, Vol.xxiii, 1973, P. 221.
- 15) Ibid, P.230.
- 16) Alc , LL. 10-14.
- 17) Ibid, LL. 15-16.
- 18) Ibid, LL. 17-18.
- 19) Ibid, L.301.
- 20) Norwood , G., Greek Tragedy, London, 1920, P.189.
- Hadley , W.S., Ed. Alcestes, Cambridge, 1934, P.xi.
- 21) Alc L. 156.

- 22)Ibid, L.145.
 23)Ibid, L.198.
 24)Ibid, L.247.
 25)Ibid, L.250.
 26)Ibid, L.280ff.
 27)Ibid, L.300.
 28)Ibid, L.381.
 29)Ibid, L.380.
 30)Ibid L.382.
 31)Ibid, L.383.
 32)Ibid, L.614.
 33)Ibid, LL.619-624.
 34)Ibid, LL.627-628.
 35)Ibid, LL.337-341.
 36)Ibid, LL.662-665, L.724.
 37)Ibid, L.694, 696, L.702.
 38)Ibid, LL.682-684.
 39)Ibid, L.691.
 40)Ibid, L.703-704.
 41)Ibid, L.712.
 42)Ibid, LL.734-737.
 43)Ibid, LL.879-880.
 44)Ibid, L.939.
 45)Ibid, L.941.
 46)Ibid, LL.954-960.
 47)Ibid, L.940.
 48)Ibid, L.1008ff.
 كان يوريديس قد هيا الأذهان من قبل إلى التدخل الإلهي لإنقاذ "الكستيس" من الموت ،
 و"ألميتوس" من المعاناة ، وذلك في صلاة الجوقة إلى "زيوس" . إنظر الأبيات ٢٢٠-٢٢١ .
 49)Ibid, LL.1064-1069, 1079-1082.
 50)Ibid, L.1048.
 51)Ibid LL.1119-1134.
 52)Med., L.13.
 53)Ibid, LL.17-18.
 54)Moore, Jphn. A, Sophocles And Arete, Cambridge Univ. Pr., 1938
 PP.34-36.
 55)Wright, F.A., Feminism In Greek Literature From Homer To Aristotle,
 Knnikat Pr., London, 1969, P.91.

Trypanis, C.A., Greek Poetry From Homer To Seferis, Faber&Feber,
London , 1981, P.168.

56)Med., L.86.

57)Ibid, LL.225-229.

58)Ibid, L.218.

59)Ibid, LL.217-276, 340-351.

لاشك أن ضيق الوقت كان أقوى عناصر الضغط على مشاعر "ميديا" ، مما أدى إلى
اضطرابها وقلقها ، فلا بد أن تقع أحداث خطيرة قبل أن ينتهي ذلك اليوم. انظر:

De Romilly , Jacqueline , Time In Greek Tragedy , Cornell Univ. , pr.,
1968, P.9.

60)Med., LL.255-258.

61)Ibid, L.445.

62)Ibid, LL.446-458.

63)Ibid, LL.502-508.

64)Ibid, LL.530-531.

65)Ibid, LL.536-537.

66)Ibid, LL.551-568, 593-597.

67)Ibid, L.579.

68)Ibid, L.598.

69)Ibid, LL.610-612.

70)Med., L. 615.

71)Med., Louise. M,A,A Study In The Medea,G&R., Vol.12,1943,P.18.

72)Ibid, L.617.

73)Ibid, LL.663-669.

74)Ibid, LL.713-722.

75)Wright, F.A., Op.cit. , P.123.

Knox ,B.M.W,The Medea Of Euripides,Ycs, Vol.25,1977,P.202.

76)Med., LL.731-732.

77)Ibid, LL. 869-870.

78)Ibid, LL.873-876.

79)Grube, G.M.A,Op.cit.,PP.158-159.

80)Med., L.908.

81)Ibid, LL.959-963.

82)Ibid, L.965.

83)Ibid, L.1125ff.

84)Ibid, LL.1136-1139.

85)Ibid, LL.1242-1250.

إن قتل الأطفال فعل مرعب من الصعب أن يتفهمه الجمهور أو يتقبله مالم يصور " يوريبيديس"
تردد " ميديا " الطويل وتمزقها النفسي البالغ قبل الإقدام على تنفيذه . إنظر :

Easterling , P.E., The Infanticide In Eurpides Medea, Yes, 25, 1977,
P. 188.

86) Latimore, R., Story Patterns In Greek Tragedy , London, 1964,
P. 37.

87) Med., L. 1310, 1326.

88) Ibid, L. 817.

89) Ibid, L. 1366.

90) Ibid, L. 1370

91) Ibid, L. 1369.

92) إنظر نيجيبي لطفي عبد الوهاب ، المراجع السابق ، ص ٩٩ .

93) Plato, Politeia, Bk. VII.